تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقال تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) الآية وقال تعالى (ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وقال (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً . وقوله (ويوم يرجعون إليه) أى ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) أى يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير كما قال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال (ووضع الكتب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا) ولهذا قال ههنا (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم) والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام . آخر تفسير سورة النور ولله الحمد والمنة.

﴿ تفسير سورة الفرقان مكية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً * ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾

يقول تعالى حامدا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) الآية وقال ههنا (تبارك) وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة (الذى نزل الفرقان) نزل فعل من التكرر والتكثر كقوله (والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجما مفرقا مفصلا آيات بعد آيات وأحكاما بعد أحكام وسوراً بعد سور وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والغى والرشاد والحلال والحرام وقوله (على عبده) هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته كما وصفه بها فى أشرف أحواله وهى ليلة الإسراء فقال (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه فقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقوله (ليكون للعالمين نذيرا) أى إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) الذى جعله فرقانا عظيما ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء كما قال ﷺ « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « إنى أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » فذكر منهن : أنه « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » كما قال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) الآية أى الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض الذى يقول للشىء كن فيكون وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال ههنا (الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك) ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك . ثم أخبر أنه (خلق كل شىء فقدره تقديراً) أى كل شىء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه وكل شىء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره

﴿ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شىء المالك لأزمة الأمور الذى ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ومع هذا عبدوا معه من الأصنام مالا يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا فكيف يملكون لعابديهم ؟ (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) أى ليس لهم من ذلك شىء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذى هو يحيي ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) كقوله (وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر) وقوله (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميعا لدينا محضرون) فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ولا تنبغى العبادة إلا له لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذى لا ولد له ولا والد ولا عديل ولا بديل ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار فى قولهم عن القرآن (إن هذا إلا إفك) أى كذب (افتراه) يعنون النبي صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه قوم آخرون) أى واستعان على جمعه بقوم آخرين فقال الله تعالى (فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد افتروا هم قولا باطلا وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) يعنون كتب الأوائل أى استنسخها (فهى تملى عليه) أى تقرأ عليه (بكرة وأصيلا) أى فى أول النهار وآخره وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه فانه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعانى شيئا من الكتابة لا فى أول عمره ولا فى آخره وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة حتى إنهم كانوا يسمونه فى صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها وحاروا فيما يقذفونه به فتارة من إفكهم يقولون ساحر وتارة يقولون شاعر وتارة يقولون مجنون وتارة يقولون كذاب ، وقال الله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقال تعالى فى جواب ماعاندوا ههنا وافتروا (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين اخبارا حقا صدقا مطابقا للواقع فى الخارج ماضيا ومستقبلا (الذى يعلم السر) أى الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى (إنه كان غفورا رحيما) دعاء لهم إلى التوبة والانابة وإخبار لهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم ، مع أن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ماقالوا يدعوهم إلى التوبة والاقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى كما قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) وقال تعالى (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا *

أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلاحجة ولادليل منهم وإنما تعللوا بقولهم (مالهذا الرسول يأكل الطعام) يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه (ويمشي في الأسواق) أي يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) يقولون هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه وهذا كما قال فرعون (فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا (أو يلقى إليه كنز) أي علم كنز ينفق منه (أو تكون له جنة يأكل منها) أي تسير معه حيث سار ، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) قال الله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا) أي جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك ولهذا قال (فضلوا) عن طريق الهدى (فلا يستطيعون سبيلا) وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فانه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضا ثم قال تعالى مخبرا نبيه أنه إن شاء لآتاه خيرا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن فقال (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) الآية ، قال مجاهد يعني في الدنيا قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا كبيرا كان أو صغيرا قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطي أحدا من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال « اجمعوها لي في الآخرة » فأنزل الله عز وجل في ذلك (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) الآية وقوله (بل كذبوا بالساعة) أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا بل تكذيبهم يوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال (وأعتدنا) أي أرصدنا (لمن كذب بالساعة سعيرا) أي عذابا أليما حارا لا يطاق في نار جهنم قال الثوري عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير (السعير) واد من قيح جهنم وقوله (إذا رأتهم) أي جهنم (من مكان بعيد) يعني في مقام المحشر . قال السدي من مسيرة مائة عام (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أي حنقا عليهم كما قال تعالى (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله، وروى ابن أبي حاتم حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخنف الواسطي أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي عن أصبغ بن زيد عن خالد بن كثير عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يقل على مالم أقل أو ادعى إلى غير والديه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار — وفي رواية — فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا » قيل يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال أما سمعتم الله يقول (إذا رأتهم من مكان بعيد) » الآية ورواه ابن جرير عن محمد بن خداش عن محمد ابن يزيد الواسطي به وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو بكر بن عياش عن عيسى بن سليم عن أبي وائل قال خرجنا مع عبد الله يعني ابن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى

حديدة فى النار ، وينظر الربيع بن خيثم اليها فتمايل الربيع ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطىء الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً) فصعق يعنى الربيع وحملوه إلى أهل بيته فرابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق رضى الله عنه ، وحدثنا أبى حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبى يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف ، هكذا رواه ابن أبى حاتم باسناده مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدورقى حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن أبى يحيى عن مجاهد باسناده إلى ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار فتزوى وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن مالك ؟ قالت إنه يستجير منى فيقول أرسلوا عبدى وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول يارب ما كان هذا الظن بك فيقول فما كان ظنك ؟ فيقول أن تسعنى رحمتك ، فيقول أرسلوا عبدى وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق اليه النار شهقة البغلة إلى الشعير وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف وهذا إسناد صحيح : وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير فى قوله (سمعوا لها تغيظا وزفيراً) قال إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا خر لوجهه ترتعد فرائصه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى . وقوله (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال قتادة عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : مثل الزج فى الرمح أى من ضيقه . وقال عبد الله بن وهب أخبرنى نافع بن يزيد عن يحيى بن أبى أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن قول الله (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال « والذى نفسى بيده ! إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط » وقوله (مقرنين) قال أبو صالح يعنى مكتفين (دعوا هنالك ثبوراً) أى بالويل والحسرة والخيبة (لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً) الآية . روى الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن يزيد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادى ياثبوراه وينادون ياثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول ياثبوراه ويقولون ياثبورهم فيقال لهم لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً » لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن سنان عن عفان به ، ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً) الآية أى لاتدعوا اليوم ويلا واحداً وادعوا ويلا كثيرا ، وقال الضحاك الثبور: الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون (وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً) أى هالكا قال عبد الله بن الزبعرى

إذ أجارى الشيطان فى سنن الغ ... ى ومن مال ميله مثبور

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴾

يقول تعالى : يامحمد هذا الذى وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ويلقون فى أماكنها الضيق مقرنين لايستطيعون حراكا ولا استنصارا ولا فكاكا مما هم فيه أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده التى أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه فى الدنيا وجعل مآلهم اليها (لهم فيها مايشاءون) من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد وهم فى ذلك خالدون أبدا دائماً سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا يبغون عنها حولا وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم وأحسن به إليهم ولهذا قال (كان على ربك وعدا مسئولا) أى لابد أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء

العربية أن معنى قوله (وعدا مسئولا) أى وعدا واجبا . وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس (كان على ربك وعدا مسئولا) يقول فسألوا الذى وعدهم وتنجزوه ، وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله (كان على ربك وعدا مسئولا) إن الملائكة تسأل لهم ذلك (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) . وقال أبو حازم إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا فأنجز لنا ماوعدتنا فذلك قوله (وعدا مسئولا) وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ثم التنبيه على حال أهل الجنة كما ذكر تعالى فى سورة الصافات حال أهل الجنة ومافيها من النضرة والحبور ثم قال (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار فى عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) قال مجاهد هو عيسى والعزير والملائكة (فيقول أ أنتم أضللتم عبادى هؤلاء) الآية أى فيقول تبارك وتعالى للمعبودين أ أنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم كما قال الله تعالى (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أ أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به) الآية ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة (قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله (نتخذ من دونك من أولياء) أى ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك لانحن ولاهم فنحن مادعوناهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم كما قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك) الآية وقرأ آخرون (ماكان ينبغى لنا أن نتخذ[1] من دونك من أولياء) أى ماينبغى لأحد أن يعبدنا فإنا عبيد لك فقراء إليك وهى قريبة المعنى من الأولى (ولكن متعتهم وآباءهم) أى طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أى نسوا ما أنزلته اليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لاشريك لك (وكانوا قوما بوراً) قال ابن عباس أى هلكى ، وقال الحسن البصرى ومالك عن الزهرى أى لاخير فيهم . وقال ابن الزبعرى حين أسلم :

يارسول المليك إن لسانى راتق مافتقت إذ أنا بور
إذ أجارى الشيطان فى سنن الغ ى ومن ميله مثبور

قال الله تعالى (فقد كذبوكم بما تقولون) أى فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقوله (فما تستطيعون صرفا ولا نصرا) أى لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم (ومن يظلم منكم) أى يشرك بالله (نذقه عذابا كبيراً)

(١) أى بضم النون وفتح الخاء .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذى به ويمشون فى الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم فان الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) وقوله (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) الآية وقوله تعالى (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) أى اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصى ولهذا قال (أتصبرون وكان ربك بصيرا) أى بمن يستحق أن يوحى إليه كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك ، وقال محمد بن إسحق فى قوله (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) قال: يقول الله لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بهم وأبتليكم بهم وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى إنى مبتليك ومبتلى بك » وفى المسند عن رسول الله ﷺ «لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » وفى الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً * وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم (لولا أنزل علينا الملائكة) أى بالرساله كما تنزل على الأنبياء كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا (لولا أنزل علينا الملائكة) فنراهم عيانا فيخبرونا أن محمدا رسول الله كقولهم (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) وقد تقدم تفسيرها فى سورة سبحان ولهذا قالوا (أو نرى ربنا) ولهذا قال الله تعالى (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) وقد قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) الآية وقوله تعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) أى هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : أخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، أخرجى إلى سموم وحميم وظل من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن فيضربونه كما قال الله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) الآية وقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم) أى بالضرب (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فانهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم) وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : ان

الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان . وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال آخرون : بل المراد بقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى) يعني يوم القيامة ، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا وما تقدم فان الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين (ويقولون حجرا محجورا) أي وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل الحجر المنع ومنه يقال حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف إما لفلس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك ، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه وإنما يطاف من ورائه ومنه يقال للعقل حجر لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي مالا يليق والغرض أن الضمير في قوله (ويقولون) عائد على الملائكة هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا موسى يعني ابن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري في الآيه (ويقولون حجراً محجوراً) قال حراما محرما أن يبشر بما يبشر به المتقون ، وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج أنه قال ذلك من كلام المشركين (يوم يرون الملائكة) أي يتعوذون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقول (حجراً محجوراً) وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله (حجراً محجوراً) أي عوذاً معاذاً فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال (حجراً محجوراً) عوذاً معاذاً الملائكة تقول ذلك فالله أعلم . وقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) الآية هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء ، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) قال مجاهد والثوري (وقدمنا) أي عمدنا وكذا قال السدي وبعضهم يقول أتينا عليه . وقوله تعالى (فجعلناه هباء منثورا) قال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن الحارث عن علي رضي الله عنه في قوله (هباء منثورا) قال شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، وكذا روى من غير هذا الوجه عن علي ، وروى مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم ، وكذا قال الحسن البصري هو الشعاع في كوة أحدكم ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع . وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس (هباء منثورا) قال هو الماء المهراق ، وقال أبو الأحوص عن أبي إسحق عن الحارث عن علي (هباء منثورا) قال الهباء وهج الدواب ، وروى مثله عن ابن عباس أيضا والضحاك وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال قتادة في قوله (هباء منثورا) قال أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق ، وقال عبد الله ابن وهب أخبرني عاصم بن حكيم عن أبي سريع الطائي عن عبيد بن يعلى قال وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدا إذا إنها لاشيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية كما قال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى — إلى قوله تعالى — لا يقدرون على شيء مما كسبوا) وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) وتقدم الكلام على تفسير ذلك ولله الحمد والمنة . وقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) أي يوم القيامة (لا يستوي

أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات فهم فى مقام أمين حسن المنظر طيب المقام (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات والحسرات المتتابعات وأنواع العذاب والعقوبات (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أى بئس المنزل منظرا وبئس المقيل مقاما ولهذا قال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) أى بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا اليه بخلاف أهل النار فانهم ليس لهم عمل واحد يقتضى دخول الجنة لهم والنجاة من النار فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكلية فقال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) قال الضحاك عن ابن عباس : إنما هى ساعة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين . وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار قال الله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقال عكرمة إنى لأعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وهى الساعة التى تكون فى الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قيلولتهم فى الجنة وأطعموا كبد حوت فأشبعهم كلهم وذلك قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقال سفيان عن ميسرة عن المنهال عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقرأ (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) : وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) قال قالوا فى الغرف من الجنة وكان حسابهم إذ عرضوا على ربهم عرضة واحدة وذلك الحساب اليسير وهو مثل قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا) وقال قتادة (خير مستقرا وأحسن مقيلا) مأوى ومنزلا وقال قتادة وحدث صفوان بن محرز أنه قال : يجاء برجلين يوم القيامة أحدهما كان ملكا فى الدنيا إلى الحمرة والبياض فيحاسب فاذا عبد لم يعمل خيرا قط فيؤمر به إلى النار والآخر كان صاحب كساء فى الدنيا فيحاسب فيقول يارب ما أعطيتنى من شىء فتحاسبنى به فيقول الله : صدق عبدى فأرسلوه فيؤمر به إلى الجنة ثم يتركان ماشاء الله ، ثم يدعى صاحب النار فاذا هو مثل الحممة السوداء فيقال له كيف وجدت فيقول شر مقيل فيقال له عد ثم يدعى بصاحب الجنة فاذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له كيف وجدت ؟ فيقول رب خير مقيل فيقال له عد . رواها ابن أبى حاتم كلها ، وقال ابن جرير : حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن سعيدا الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم يتقلبون فى رياض الجنة حتى يفرغ من الناس وذلك قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذى يبهر الأبصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء . قال مجاهد وهذا كما قال تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) الآية قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) قال ابن عباس

رضى الله عنهما يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والانس وجميع الخلق كلهم وينزل ربنا عز وجل فى ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع ومن الجن والانس ، وجميع الخلق لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله عزوجل ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام وما بين ركبته إلى حجزته[1] مسيرة خمسمائة عام وما بين حجزته إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام وما بين ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام وجههم محسه ، هكذا رواه ابن أبى حاتم بهذا السياق وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى الحجاج عن مبارك بن فضالة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت ينزل منها من الملائكة أكثر من الانس والجن وهو يوم التلاق يوم يلتقى أهل السماء وأهل الأرض فيقول أهل الأرض جاء ربنا ؟ فيقولون لم يجىء وهو آت ثم تنشق السماء الثانية ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السموات ومن الجن والانس . قال فتنزل الملائكة الكروبيون ثم يأتى ربنا فى حملة العرش الثمانية بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة. قال وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه[2] يقول سبحان الملك القدوس وعلى رءوسهم شىء مبسوط كأنه القنا والعرش فوق ذلك ثم وقف فمداره على على بن زيد بن جدعان وفيه ضعف فى سياقاته غالبا وفيها نكارة شديدة ، وقد ورد فى حديث الصور المشهور قريب من هذا والله أعلم ، وقد قال الله تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهى يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك رواه ابن جرير عنه وقال أبو بكر ابن عبد الله إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم شخصت اليه أبصارهم ورجفت كلاهم فى أجوافهم وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم . قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا المعتمر بن سليمان عن عبد الجليل عن أبى حازم عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله عزوجل حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة فيضرب الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب وهذا موقوف على عبد الله بن عمرو من كلامه ولعله من الزاملتين والله أعلم

وقوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن) الآية كما قال تعالى (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) وفى الصحيح أن الله تعالى يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك أنا الديان أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون أين المتكبرون ؟ وقوله (وكان يوما على الكافرين عسيراً) أى شديداً صعباً لأنه يوم عدل وقضاء فصل كما قال تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير) فهذا حال الكافرين فى هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الآية . وروى الإمام أحمد حدثنا حسين بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال : قيل يارسول الله (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه

(١) فى النسخة المكية أرنبته (٢) فى نسخة يديه .

من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » وقوله تعالى (ويوم يعض الظالم على يديه) الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذى لا مرية فيه وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفا وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم كما قال تعالى (يوم تقلب وجوههم فى النار) الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعض على يديه قائلا (يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) يعنى من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة ، وسواء فى ذلك أمية ابن خلف أو أخوه أبى بن خلف أو غيرهما (لقد أضلنى عن الذكر) وهو القرآن (بعد إذ جاءنى) أى بعد بلوغه إلىّ قال الله تعالى (وكان الشيطان للإنسان خذولا) أى يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله فى الباطل ويدعوه إليه

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال « يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره حتى لا يسمعونه . فهذا من هجرانه وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ، من هجرانه فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذى يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) أى كما حصل لك يا محمد فى قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان فى الأمم الماضين لأن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن) الآيتين ولهذا قال تعالى ههنا (وكفى بربك هاديا ونصيرا) أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه فان الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة وإنما قال (هاديا ونصيرا) لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن فلهذا قال (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) الآية

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحده كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله (وقرآنا فرقناه) الآية ولهذا قال (لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) قال قتادة: بيناه تبيينا . وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا (ولا يأتونك بمثل) أى بحجة وشبهة (إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) أى ولا يقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق

فى نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولا يأتونك بمثل) أى بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول (إلا جئناك بالحق) الآية أى إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يأتيه الوحى من الله عز وجل بالقرآن صباحا ومساء وليلا ونهارا سفرا وحضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كانزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبى أرسله الله تعالى وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث وروى النسائى بإسناده عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، قال الله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)

ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم فى أسوإ الحالات وأقبح الصفات (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) وفى الصحيح عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال « إن الذى أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من مشركى قومه ومن خالفه ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا أى نبيا موازرا ومؤيدا وناصرا فكذبهما فرعون وجنوده (فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحا عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فانهم كانوا يكذبون ، ولهذا قال تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عز وجل ويحذرهم نقمه (فما آمن معه إلا قليلا) ولهذا أغرقهم الله جميعا ولم يبق منهم أحدا ولم يترك من بنى آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط (وجعلناهم للناس آية) أى عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) أى وأبقينا لكم من السفن ما تركبون فى لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم من إنجائكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره . وقوله تعالى (وعادا وثمود وأصحاب الرس) قد تقدم الكلام على قصتهما فى غير ما سورة كسورة الأعراف بما أغنى عن الاعادة ، وأما أصحاب الرس فقال ابن جرير عن ابن عباس هم أهل قرية من قرى ثمود وقال ابن جريج : قال عكرمة أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس ، وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس فى قوله (وأصحاب الرس) قال بئر بأذربيجان وقال الثورى عن أبى بكر عن عكرمة الرس بئر رسوا فيها نبيهم أى دفنوه فيها ، وقال ابن إسحق عن محمد بن كعب

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئرا فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشترى به طعاما وشرابا ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله تعالى عليها فيدلى اليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت ، قال فكان ذلك ماشاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوما يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان يصنع ثم إنه ذهب إلى الحفيرة موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده وكان قد بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه ، قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود مافعل فيقولون له لاندرى حتى قبض الله النبي وهب الأسود من نومته بعد ذلك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن محمد ابن إسحق عن محمد بن كعب مرسلا وفيه غرابة ونكارة ولعل فيه إدراجا والله أعلم : وقال ابن جرير لايجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرأس الذين ذكروا فى القرآن لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكهم وهؤلاء آمنوا بنبيهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم ، واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج فالله أعلم . وقوله تعالى (وقرونا بين ذلك كثيراً) أى وأمما أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة ولهذا قال (وكلا ضربنا له الأمثال) أى بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة كما قال قتادة وأزحنا الأعذار عنهم (وكلا تبرنا تتبيراً) أى أهلكنا إهلا كا كقوله تعالى (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) والقرن هو الأمة من الناس كقوله (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة وقيل بمائة وقيل بثمانين وقيل أربعين وقيل غير ذلك والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون فى الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر كما ثبت فى الصحيحين « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء) يعنى قرية قوم لوط وهى سدوم التى أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التى من سجيل كما قال تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) وقال (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون) وقال تعالى (وإنها لبسبيل مقيم) وقال (وإنهما لبإمام مبين) ولهذا قال (أفلم يكونوا يرونها) أى فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله (بل كانوا لايرجون نشورا) يعنى المارين بها من الكفار لايعتبرون لأنهم لايرجون نشوراً أى معادا يوم القيامة

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه كما قال تعالى (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً) الآية يعنونه بالعيب والنقص ، وقال ههنا (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولا ؟) أى على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله كما قال (ولقد استهزىء برسل من قبلك) الآية . وقوله تعالى (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا) يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال الله تعالى متوعدا لهم ومتهددا (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) الآية . ثم قال تعالى لنبيه منبها أن من

كتب الله عليه الشقاوة والضلال فانه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) أى مهما استحسن من شىء ورآه حسنا فى هوى نفسه كان دينه ومذهبه كما قال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء) الآية ولهذا قال ههنا (أفأنت تكون عليه وكيلا) قال ابن عباس كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا فاذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول . ثم قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) الآية أى هم أسوأ حالا من الأنعام السارحة فان تلك تفعل ماخلقت له وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لاشريك له فلم يفعلوا وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل اليهم

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾

من ههنا شرع سبحانه وتعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامه على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ؟) قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي والضحاك والحسن وقتادة : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس (ولو شاء لجعله ساكنا) أى دائما لايزول كما قال تعالى (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً) الآيات . وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) أى لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف فان الضد لايعرف إلا بضده ، وقال قتادة والسدى دليلا تتلوه وتتبعه حتى تأتى عليه كله . وقوله تعالى (ثم قبضناه إلينا قبضا يسيراً) أى الظل وقيل الشمس (يسيراً) أى سهلا قال ابن عباس سريعا وقال مجاهد خفيا وقال السدى قبضا خفيا حتى لايبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة وقد أظلت الشمس مافوقه ، وقال أيوب بن موسى فى الآية (قبضا يسيرا) قليلا قليلا ، وقوله (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) أى يلبس الوجود ويغشاه كما قال تعالى (والليل إذا يغشى) (والنوم سباتا) أى قاطعا للحركة لراحة الأبدان فان الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعاش فاذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معا (وجعل النهار نشورا) أى ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم كما قال تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) الآية

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أى بمجىء السحاب بعدها والرياح أنواع فى صفات كثيرة من التسخير فمنها مايثير السحاب ، ومنها مايحمله ومنها مايسوقه ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشرا ومنها ما يكون قبل ذلك تقم الأرض ومنها مايلقح السحاب ليمطر ولهذا قال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) أى آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وماجرى مجراها . فهذا أصح مايقال فى ذلك ، وأما من قال إنه فعول بمعنى فاعل أو إنه مبنى للمبالغة والتعدى فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم ليس هذا موضع بسطها والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى بإسناده إلى حميد الطويل عن ثابت البنانى قال دخلت مع أبى العالية فى يوم مطير وطرق البصرة قذرة فصلى فقلت له فقال (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) قال طهره ماء السماء وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا وهيب عن داود عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية قال : أنزله الله طهورا لاينجسه شىء . وعن أبى سعيد قال : قيل يارسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهى بئر يلقى فيها النتن ولحوم الكلاب ؟ فقال « إن الماء طهور لاينجسه شىء » رواه الشافعى وأحمد وصححه وأبو داود والترمذى وحسنه والنسائى . وروى ابن أبى حاتم باسناده

حدثنا أبي حدثنا أبو الأشعث حدثنا معتمر سمعت أبي يحدث عن سيار عن خالد بن يزيد قال : كنا عند عبد الملك بن مروان فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فيذبه الرعد والبرق فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات فأما النبات فما كان من السماء ، وروى عن عكرمة قال ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة ، وقال غيره : في البر بر وفي البحر در ، وقوله تعالى (لنحيي به بلدة ميتا) أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان كما قال تعالى (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) الآية (ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا) أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم كما قال تعالى (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) الآية وقال تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) الآية : وقوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقا والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه كيف يشاء ثم قرأ هذه الآية (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أي ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو ليذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه . وقال عمر مولى عقبة : كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا جبريل إني أحب أن أعلم أمر السحاب » قال : فقال له جبريل يا نبي الله هذا ملك السحاب فسله فقال تأتينا صكاك مختمة : أسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة . رواه ابن أبي حاتم وهو حديث مرسل وقوله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) قال عكرمة يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوما على أثر سماء أصابتهم من الليل « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب »

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

يقول تعالى (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) يدعوهم إلى الله عز وجل ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن (لأنذركم به ومن بلغ) (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) (لتنذر أم القرى ومن حولها) (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) وفي الصحيحين « بعثت إلى الأحمر والأسود » وفيهما « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ولهذا قال تعالى (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به) يعني بالقرآن قاله ابن عباس (جهادا كبيرا) كما قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية وقوله تعالى (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) أي خلق الماءين الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال : قاله ابن جرير واختاره ابن جرير ، وهذا المعنى لا شك فيه فانه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات ، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيونا

فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم وقوله تعالى (وهذا ملح أجاج) أى مالح مر زعاق لا يستساغ وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم وبحر اليمن وبحر البصرة وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض فإذا شرع الشهر فى النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع فى النقص ، فاجرى الله سبحانه وتعالى — وهو ذو القدرة التامة — العادة بذلك ، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان ، ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميتتها طيبة ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر أنتوضأ به ؟ فقال « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » رواه الأئمة مالك والشافعى وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد وقوله تعالى (وجعل بينها برزخاً وحجرا) أى بين العذب والملح (برزخا) أى حاجزا وهو اليبس من الأرض (وحجراً محجوراً) أى مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر كقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشرا) الآية أى خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكرا وأنثى كما يشاء (فجعله نسبا وصهرا) فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ولهذا قال تعالى (وكان ربك قديرا)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير الله من الأصنام التى لا تملك له ضرا ولا نفعا بلا دليل قادهم إلى ذلك ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون فى سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم ولهذا قال تعالى (وكان الكافر على ربه ظهيرا) أى عونا فى سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) أى آلهتهم التى اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرا ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويذبون عن حوزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين فى الدنيا والآخرة قال مجاهد (وكان الكافر على ربه ظهيرا) قال يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه ، وقال سعيد بن جبير (وكان الكافر على ربه ظهيرا) يقول عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك ، وقال زيد بن أسلم (وكان الكافر على ربه ظهيرا) قال موواليا ، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين ، مبشرا بالجنة لمن أطاع الله ونذيرا بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر الله (قل ما أسألكم عليه من أجر) أى على هذا البلاغ وهذا الانذار من

أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم) (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) أى طريقا ومسلكا ومنهجا يقتدى فيها بما جئت به ، ثم قال تعالى (وتوكل على الحى الذى لايموت) أى فى أمورك كلها كن متوكلا على الله الحى الذى لايموت أبدا الذى هو (الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) الدائم الباقى السرمدى الأبدى الحى القيوم رب كل شىء ومليكه اجعله ذخرك وملجأك ، وهو الذى يتوكل عليه ويفزع اليه فانه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا عبد الله بن محمد بن على بن نفيل قال قرأت على معقل يعنى ابن عبيدالله عن عبد الله بن أبى حسين عن شهر بن حوشب قال ، لقى سلمان النبى ﷺ فى بعض فجاج المدينة فسجد له فقال « لاتسجدلى يا سلمان واسجد للحى الذى لايموت » وهذا مرسل حسن . وقوله تعالى (وسبح بحمده) أى اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أى أخلص له العبادة والتوكل كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وقال تعالى (فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) وقوله تعالى (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) أى بعلمه التام الذى لايخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وقوله تعالى (الذى خلق السموات والأرض) الآية أى هو الحى الذى لايموت وهو خالق كل شىء وربه ومليكه الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع فى ارتفاعها واتساعها والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها (فى ستة أيام ثم استوى على العرش) أى يدبر الأمر ويقضى الحق وهو خير الفاصلين وقوله (ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) أى استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد علم أنه لاأحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الاطلاق فى الدنيا والآخرة الذى لاينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فما قاله فهو الحق وما أخبره به فهو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب رد نزاعهم اليه فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان قال الله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء) الآية وقال تعالى (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أى صدقا فى الاخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى ولهذا قال تعالى (فاسأل به خبيرا) قال مجاهد فى قوله (فاسأل به خبيرا) قال ما أخبرتك من شىء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جريج وقال شمر بن عطية فى قوله (فاسأل به خبيرا) هذا القرآن خبير به . ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أى لا نعرف الرحمن وكان ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ للكاتب « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقالوا لانعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ، ولهذا أنزل الله تعالى (قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى هو الله وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أى لانعرفه ولا نقر به (أنسجد لما تأمرنا) أى لمجرد قولك (وزادهم نفورا) فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذى هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالإلهية ويسجدون له ، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر فى موضعه والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

يقول تعالى ممجدا نفسه ومعظما على جميل ماخلق فى السماوات من البروج وهى الكواكب العظام فى قول مجاهد

وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة . وقيل هي قصور في السماء للحرس ، يروى هذا عن علي وابن عباس ومحمد ابن كعب وإبراهيم النخعي وسليمان بن مهران الأعمش ، وهو رواية عن أبي صالح أيضا والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ولهذا قال تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً) وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود كما قال تعالى (وجعلنا سراجا وهاجاً) (وقمراً منيرا) أي مشرقا مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس كما قال تعالى (وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) وقال مخبرا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) ثم قال تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) أي يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا وإذا جاء هذا ذهب ذاك كما قال تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الآية وقال (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) الآية وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) الآية . وقوله تعالى (لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) أي جعلهما يتعاقبان توقيتا لعبادة عباده له عز وجل فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وقد جاء في الحديث الصحيح « ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » وقال أبو داود الطيالسي حدثنا أبو حمزة عن الحسن أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى فقيل له صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه فقال إنه بقي علي من وردي شيء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه وتلا هذه الآية (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقال مجاهد وقتادة خلفة أي مختلفين أي هذا بسواده وهذا بضيائه

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين (الذين يمشون على الأرض هونا) أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار كقوله تعالى (ولا تمش في الأرض مرحاً) الآية فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال ما بالك أأنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا » وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصري في قوله (وعباد الرحمن) الآية قال : إن المؤمنين قوم ذلل ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة . فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه . وقوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا

خيراً كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما وكما قال تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) الآية . وروى الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبي خالد الوالبي عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسب رجل رجلا عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إن ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به ، وإذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به » إسناده حسن ولم يخرجوه وقال مجاهد (قالوا سلاماً) يعني قالوا سداداً ، وقال سعيد بن جبير ردوا معروفاً من القول ، وقال الحسن البصري قالوا سلام عليكم إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال تعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) أي في طاعته وعبادته كما قال تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) وقوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الآية ولهذا قال تعالى (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً) أي ملازماً دائماً كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراماً وإن يع ط جزيلا فانه لا يبالي

ولهذا قال الحسن في قوله (إن عذابها كان غراماً) كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام وإنما الغرام اللازم مادامت الأرض والسموات وكذا قال سليمان التيمي ، وقال محمد بن كعب (إن عذابها كان غراماً) يعني ما نعموا في الدنيا إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار (إنها ساءت مستقرا ومقاماً) أي بئس المنزل منظرا وبئس المقيل مقاماً ، وقال ابن أبي حاتم عند قوله (إنها ساءت مستقرا ومقاماً) حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مالك بن الحارث قال : إذا طرح الرجل في النار هوى فيها فإذ انتهى إلى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأسا من سم الأساود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة . وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا الحسن ابن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال إن في النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدهم فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت

وقال الإمام أحمد حدثنا الحسن بن موسى حدثنا سلام يعني ابن مسكين عن أبي طلال عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة ياحنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل ذهب فأتني بعبدي هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره فيقول الله عز وجل ائتني به فانه في مكان كذا وكذا فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يارب شر مكان وشر مقيل فيقول الله عز وجل : ردوا عبدي . فيقول يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدي » وقوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهليتهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم بل عدلا خيارا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا (وكان بين ذلك قواما) كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي تميم الغساني عن ضمرة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من فقه الرجل قصده في معيشته » ولم يخرجوه وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدي حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ما عال من اقتصد » لم يخرجوه . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن يحيى حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون حدثنا سعد بن حكيم عن مسلم بن حبيب عن بلال — يعني العبسي — عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « ما أحسن القصد في الغنى وما أحسن القصد في الفقر

وما أحسن القصد فى العبادة » ثم قال لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه ، وقال الحسن البصرى : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف ، وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف . وقال غيره السرف النفقة فى معصية الله عز وجل

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر ؟ قال « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك » قال ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية وهكذا رواه النسائى عن هناد بن السرى عن أبى معاوية به ، وقد أخرجه البخارى ومسلم من حديث الأعمش ومنصور زاد البخارى وواصل ثلاثتهم عن أبى وائل شقيق بن سلمة عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود به فالله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ، الحديث . طريق غريب وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى حدثنا عامر بن مدرك حدثنا السرى يعنى ابن إسماعيل حدثنا الشعبى عن مسروق قال : قال عبد الله خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعته فجلس على نشز من الأرض وقعدت أسفل منه ووجهى حيال ركبتيه واغتنمت خلوته وقلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله أى الذنب أكبر ؟ قال « أن تدعو لله ندا وهو خلقك » . قلت ثم مه ؟ قال « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » قلت ثم مه ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » ثم قرأ (والذين لا يدعون مع الله) الآية وقال النسائى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع « ألا إنما هى أربع » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ؛ « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وقال الإمام أحمد حدثنا على بن المدينى رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الأنصارى سمعت أبا طيبة الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ما تقولون فى الزنا ؟ » قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » قال « فما تقولون فى السرقة ؟ » قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام قال « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره » وقال أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له » وقال ابن جريج أخبرنى يعلى عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية ونزلت (قل يا عبادى الذى أسرفوا على أنفسهم) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبى فاختة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل « إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك ، وينهاك أن تزنى بحليلة جارك » قال سفيان وهو قوله (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية . وقوله تعالى (ومن يفعل ذلك يلق أثاما) روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : أثاما : واد فى جهنم ، وقال عكرمة (يلق أثاما) أودية فى جهنم يعذب فيها

الزناة . وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد ، وقال قتادة (يلق أثاماً) نكالا : كنا نحدث أنه وادفى جهنم

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يابنى ، إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ورد فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره عن أبى أمامة الباهلى موقوفا ومرفوعا ان غيا وأثاما بئران فى قعر جهنم . أجارنا الله منهما بمنه وكرمة . وقال السدى (يلق أثاماً) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلا منه وهو قوله تعالى (يضاعف له العذاب يوم القيامة) أى يكرر عليه ويغلظ (ويخلد فيه مهانا) أى حقيرا ذليلا . وقوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً) أى جزاؤه على مافعل من هذه الصفات القبيحة ماذكر (إلا من تاب) أى فى الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فان الله يتوب عليه ، وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) الآية فان هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ثم قد قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية . قد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته وغير ذلك من الأحاديث ، وقوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) فى معنى قوله (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قولان أحدهما أنهم بدلوا بمكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بدلن بعد حره خريفا وبعد طول النفس الوجيفا

يعنى تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها ، وقال عطاء بن أبى رباح هذا فى الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً . وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات ، وقال الحسن البصرى أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا ، وبالكفر إسلاما ، وهذا قول أبى العالية وقتادة وجماعة آخرين (والقول الثانى) ان تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وماذاك إلا لأنه كلما تذكر مامضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف رضى الله عنهم.(١) فعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا وكذا ، فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً فيقال : فان لك بكل سيئة حسنة فيقول يارب عملت أشياء لا أراها ههنا » قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، انفرد بإخراجه مسلم . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا هاشم بن يزيد حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنى أبى حدثنى ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان أعطنى صحيفتك فيعطيه إياها فما وجد فى صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات فاذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة فتلك مائة » . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة وعارم قالا حدثنا ثابت يعنى ابن يزيد أبو زيد حدثنا عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قال يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فاذا سيئاته فاذا كاد يسوء ظنه نظر فى أسفلها فاذا حسناته ثم ينظر فى أعلاها فاذا هى قد بدلت حسنات ، وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا هشام بن عمار حدثنا سليمان بن موسى الزهرى أبو داود حدثنا أبو العنبس عن أبيه عن أبى هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل من هم يا أبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات . وقال أيضاً حدثنا أبى حدثنا عبد الله

(١) قوله فعن أبى ذر الخ فى بعض النسخ زيادة السند بما لفظه . قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر الخ اهـ

ابن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف ـ قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل ـ قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين، قلت لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرءوا سيئاتهم حرفاً حرفا وقالوا يا ربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا ، فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرءوا كتابيه) فهم أكثر أهل الجنة ، وقال علي ابن الحسين زين العابدين (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال في الآخرة وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواها ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يا رسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أ أسلمت ؟» قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات » فقال يا رسول الله وغدراتي وفجراتي ؟ فقال « وغدراتك وفجراتك » فولى الرجل يكبر ويهلل : وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمر عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي فروة أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال « أسلمت ؟ » فقال نعم ، قال « فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال وغدراتي وفجراتي؟ قال « نعم » فما زال يكبر حتى توارى ، ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات عن أبي سلمة الحمصي عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعا ، وقال أيضاً حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءتني امرأة فقالت هل لي من توبة ؟ إني زنيت وولدت وقتلته ، فقلت: لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهي تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بئسما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ؟ » (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ـ إلى قوله ـ إلا من تاب) الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا ، هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف والله أعلم ، وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه وعنده فخرجت تدعو بالحسرة وتقول يا حسرتا أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا وتوبة مما عملت ، وأعتقت جارية كانت معها وابنتها وتابت إلى الله عز وجل ، ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب اليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلا أو حقيرا كبيرا أو صغيرا فقال تعالى (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) أي فان الله يقبل توبته كما قال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) الآية وقال تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) الآية وقال تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية أي لمن تاب اليه

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور قيل هو الشرك وعبادة الأصنام وقيل الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل ، وقال محمد بن الحنفية هو اللغو والغناء ، وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك

والربيع بن أنس وغيرهم : هو أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي المجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه كما جاء في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » وقيل المراد بقوله تعالى (لا يشهدون الزور) أي شهادة الزور وهي الكذب متعمدا على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » ثلاثا قلنا بلى يارسول الله قال « الشرك بالله وعقوق الوالدين » وكان متكئا فجلس فقال « ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه ولهذا قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) أي لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال (مروا كراما) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو الحسن العجلي عن محمد بن مسلم أخبرني إبراهيم بن ميسر أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » وحدثنا الحسين بن محمد بن سلمة النحوي ثنا حبان أنا عبد الله أنا محمد بن مسلم أخبرني ميسرة قال بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ثم تلا إبراهيم بن ميسرة (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وقوله تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً) وهذه أيضا من صفات المؤمنين (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) فقوله (لم يخروا عليها صما وعمياناً) أي بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى . قال مجاهد قوله (لم يخروا عليها صما وعمياناً) قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا ، وقال الحسن البصري رضي الله عنه : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى . وقال قتادة قوله تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) يقول لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أسيد بن عاصم حدثنا عبد الله بن حمران ثنا ابن عون قال سألت الشعبي قلت الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : يعني أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين وقوله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل قال ابن جريج في قوله (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) قال يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للاسلام وقال الإمام أحمد حدثنا معمر بن بشير حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير ابن نفير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ، ثم أقبل اليه فقال ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي

صلى الله عليه وسلم على أشر حال بعث عليها نبيا من الأنبياء فى فترة جاهلية ، مايرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للايمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وأنها التى قال الله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه ، وقوله تعالى (واجعلنا للمتقين إماما) قال ابن عباس والحسن والسدى وقتادة والربيع بن أنس أئمة يقتدى بنا فى الخير. وقال غيرهم هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابا ، وأحسن مآبا ، ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية»

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ماذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله (أولئك) أى المتصفون بهذه (يجزون) يوم القيامة (الغرفة) وهى الجنة ، قال أبو جعفر الباقر وسعيد ابن جبير والضحاك والسدى سميت بذلك لارتفاعها (بما صبروا) أى على القيام بذلك (ويلقون فيها) أى فى الجنة (تحية وسلاما) أى يبتدرون فيها بالتحية والإكرام . ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، وقوله تعالى (خالدين فيها) أى مقيمين لايظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض) الآية . وقوله تعالى (حسنت مستقراً ومقاما) أى حسنت منظرا وطابت مقيلا ومنزلا . ثم قال تعالى (قل ما يعبأ بكم ربى) أى لايبالى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فانه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا . قال مجاهد وعمرو بن شعيب (مايعبأ بكم ربى) يقول مايفعل بكم ربى ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (قل مايعبأ بكم ربى) الآية يقول لولا إيمانكم ، وأخبر تعالى الكفار أنه لاحاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ، وقوله تعالى (فقد كذبتم) أيها الكافرون (فسوف يكون لزاماً) أى فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم يعنى مقتضيا لعذابكم وهلاكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومحمد بن كعب القرظى ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم وقال الحسن البصرى (فسوف يكون لزاماً) أى يوم القيامة ، ولا منافاة بينهما. آخر تفسير سورة الفرقان ولله الحمد والمنة.

﴿ تفسير سورة الشعراء وهى مكية ﴾

﴿ ووقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتها سورة الجامعة ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا